لاون الثالث عشر والدول

للاب هنري لامنس اليسوعي

ليس من احد ينكر على لاون الثالث عشر فخامة منزلته في البشريَّة ففي العصور ملايين من المسيحيين يرفضون الاعتراف بسلطته الروحيَّة ولكنهُ ليس من احد بينهم الَّا يقرّ بما لشيخ الفاتيكان من الاوصاف والمناقب الجديرة برجال الحكومات كبعد النظر واصابة الرأي وتوقُّد البصيرة والكلَف الغريزي باقامة القسط والمحبَّة العظيمة لامثالهِ من البشر . وفي الاعوام الخمسة والعشرين التي قضاها في الحبريَّة دليل ساطع وبيّنة نيّرة على ما نقول

ولا يخفى انَّ البابا هو رئيس روحي على اكثر من مئتين واربعين مليونًا من المؤمنين مختلفي الاحوال بين ملوك وسوقة منتشرين في اربعة اقطار العالم فلا يستطيع صرف النظر عن المصالح الدنيويَّة التي ترتبط بها مصالح الديانة ارتباطًا قويًّا

وبما انهُ هو ايضًا ملك يرسل السفراء الذين أُعطي لهم التقدُّم من زمان لا يُعرف بدؤهُ على سائر ممتدي الدول فراهُ يخاطب ملوك هذه الدول مخاطبة المثل لمثلهِ لكن لا لرغبة او طمع في السيادة والسلطة بل لتعزيز شؤون الدين الذي فُوّضت اليهِ صيانتهُ

وبناء عليهِ فاذا تفقَّدنا تاريخ الباباوات الذين لمعت شهرتهم على كرسي بطرس ليس فقط من حيث الفضائل الحبريَّة بل ايضًا من حيث كونهم رجال دولة نرى ان لاون الثالث عشر يتبوأ بينهم محل الشرف

*

انَّ اول بلاد استلفتت انظارهُ من بعد ارتقائهِ الى عرش البابويَّة هي امبراطوريَّة المانية التي كانت قد بلغت اوج الفخار بما اصابت من التوفيقات العسكريَّة المتوالية. وكان يتولَّى شؤونها في تلك الاثناء رجل داهية اعني البرنس بسمرك الذي ما برح اسمهُ حتى الآن مثلًا لسياسة الاقدام والدراية. وكان هذا الرجل المستبدّ قد ناصب الكنيسة الكاثوليكيَّة واصلاها حربًا شديدة. ولكن ما كاد لاون الثالث عشر يُسمع صوتهُ حتى اخذت الاوهام تتبدَّد والظنون تتمزَّق. وبالنظر لما اعوب عنهُ من الحزم والمسالمة مما بيَّن هذا الخبر الجديد للرجال المتولين شؤون المانية انهم ضأوا الطريق وعمل في الوقت نفسهِ على تنشيط الالمانيين الكاثوليك وتشديد عزائمهم فانضموا عصبةً قويَّة صارت بعد مضي سنوات قليلة صاحبة الكلمة الراجحة في مجلس الرشتاغ الذي يُنتخب رئيسهُ دائمًا من بين اعضائها. وهكذا اخذت الامور تترقَّى من حسَن الى احسن حتى بطلت تلك القوانين الاستثنائيَّة المسنونة على الكاثوليك واحدًا بعد آخر

ثمَّ لمع نفوذ البابويَّة خاصَّةً في حسم الخلاف الذي وقع بين اسبانية والمانية على جزائر كارولين لان الفريقين اتفقا وقتئذٍ على تحكيم لاون الثالث عشر في القضيَّة

وفي المناسبة المذكورة بعث البرنس بسمرك الى الجالس على كرسي بطرس بذاك الرقيم المشهور الطافح بادلَّة الاعتبار والاجلال لحكمة شيخ الفاتيكان. وعلى اثرهِ احدثت المانية سفارة لها لدى الكرسي الرسولي وما زالت علائق البابويَّة من الوقت المذكور الى الآن تزيد توثُّقًا واستحكامًا بينها وبين امبراطوريَّة المانية

اما سياسة لاون الثالث عشر مع فرنسة جارة المانية الغربية فلم تقلّ حكمةً وسداداً عن سياستهِ مع المانية فقد اعلن ان الكنيسة الكاثوليكيَّة مترفعة عن خصومات الاحزاب وغير مرتبطة بهيئة خصوصيَّة من هيئات الحكومات وحرَّض الكل ولاسيما الكاثوليك على ان ينضمُّوا باخلاص الى حكومة بلادهم

وسعى ايضاً في بلجكة سعياً مشكوراً كانت عاقبتهُ افضل واحمد فبعد ان كانت العلائق السياسيَّة قد تقطَّعت بين الحكومة المشار اليها والكرسي الرسولي عادت سريعاً الى سابق مجراها ومن عهد سبع عشرة سنة الى الآن صارت حكومة البلاد الى وزارة كاثوليكيَّة تدبر شؤونها وتتولَّى امورها وليس من ينكر ان للاون الثالث عشر يداً قويَّة في تحقيق هذه الامنيَّة . وقد سبق المشرق (٤ : ٨٤١) فبيَّن ما وصلت اليهِ هذه المملكة الصغيرة الكاثوليكية من التقدم المادي العجيب في صناعتها واتساع نطاق تجارتها وغير ذلك من اسباب النجاح الذي فاقت بهِ جميع الاقطار وهو برهان محسوس على انَّ الكثلكة والتقدم يسيران معاً ويتمشيان في طريق واحد بشرط ان لا تتصدَّى الاهواء البشريَّة لما كتبها

ولم يكن نفوذ البابا لاون الثالث عشر في النمسة اقل من نفوذهِ في غيرها ففي شهر كانون الثاني من عام ١٨٨٩ بعد ان فُجع الامبراطور فرنسوا جوزف بوفاة الارشيدوق رودلف وليّ عهدهِ في ظروف محزنة للغاية التجأ الى رومية طالباً من الحبر الروماني عزاء وسلواناً . وقد زارهُ ملك وملكة ايطالية غير انهُ لم يردّ لها الزيارة مع كل ما بذل الساعون من السعي والاجتهاد في حملهِ اليها . وغاية ما اراد من ذلك

ان لا يتسبب باساءة ابي المؤمنين العام وتنغيصه

هلمَّ الآن نذكر باختصار علائق الدول غير الكاثوليكيَّة في اوربَّة مع الكرسي الرسولي ولنبتدئ اولًا بالروسيَّة فنجد انها قد بادرت الى تعيين مندوب لدى الفاتيكان. واما انكلترة فانها ما زالت تتلقَّى باعظم مظاهر التكريم الكرادلة الوافدين اليها من رومية باسم لاون الثالث عشر وتعاملهم في القصر الملكي معاملة الامراء اذ تقدَّمهم على رئيس اساقفة كنتربري كبير احبار الكنيسة الانكليكانية. ثمَّ ان القوانين التي تقيِّد حرِّيَّة الكاثوليك قد أبطلت تدريجًا من انكلترة كما أبطلت من غيرها من البلدان البروتستانيَّة في اوربَّة مثل اسوج والدانيمرك وقد صرَّحت حكومات البلاد المشار اليها بانها ألفتها اجابةً للافكار السامية التي اعرب عنها لاون الثالث عشر وجريًا على خطَّته السلميَّة

*

واذا انتقلنا من اوربَّة الى آسية نجد مملكتين عظيمتين اعني بهما دولة الصين ودولة اليابان. وكما انَّ الثانية تسير بقدم ثابتة في مراقي التقدُّم والنجاح نرى الاولى مصرَّة على التشبُّث بتقاليدها القديمة غير انها تفتخر وتعتزّ بمقاطعاتها الكبيرة التي تضاهي كل واحدة منها دولة عزيزة الجانب لانها آهلة بما لا يقلّ عن اربعمائة مليون من النفوس. ومع كل هذا لم يتأخر امبراطور هذه المملكة الشاسعة الاطراف عن ابداء امائر الاحترام الوفير للبابا لاون الثالث عشر فبعث اليه برقيم في غاية الولاء. وخوَّل الاساقفة الكاثوليكيين لقب مناندرة وهو لقب اشراف الصين. وكذلك في اليابان سقطت تلك الافكار القديمة اي

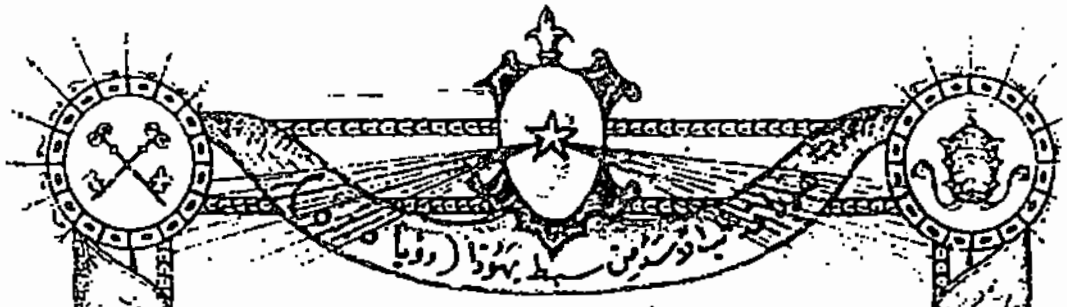

افكار الاضطهادات وأُعيدت سلسلة المراتب الكنسيَّة واشتركت الحكومة اكثر من مرَّة مع سائر العالم المتمدّن في تأدية فروض التجلَّة والتكريم للجالس على عرش البابويَّة. وجرى ايضاً على هذه الخطَّة جلالة شاه العجم وكثيرًا ما كلَّف القصَّاد الرسوليين في بلاده بان ينوبوا عنهُ بتقديم اخلص عواطف الولاء لقداسة الحبر الاعظم. اما (دولتنا العليَّة) فنحيل القرَّاء الى مراجعة ما كُتب عن علائقها الطيبة مع الكرسي الرسوليّ في مقالة «لاون الثالث عشر والشَّرق»

ولا نذكر في هذا المقام افريقيَّة الَّا للالمام بمساعي لاون الثالث عشر في انماء التجارة بالرقيق. فان مساعيهُ المذكورة قد تكلَّلت بالنجاح في مؤتمر بروكسل المؤلف من مندوبي جميع الدول الذين اثنوا كلَّ الثناء على سموّ افكار رجل الفاتيكان. واما اوقيانية فلا سبيل الى ذكر شيء خصوصي عنها لان جميع اجزائها آهلة بالمستعمرات العائدة على حكومات اوربة فلم يبقَ اذًا الَّا ان نلقي نظرةً عموميَّة على امركة لنرى ما هنالك من النفوذ والقول الراجح لنائب «رئيس السلام»

*

وبتبدّي بجمهوريَّة امركة الشماليَّة نرى ان الرئيس كلفلند قدَّم للاون الثالث عشر في معرض يوبيله الكهنوتي كتابًا من الدستور الاميركي نفيس التجليد وجملهُ هدية الحبر الروماني المحب لكل نجاح ينشأ عن الحرية الحقيقة المبنية على المبادئ القويمة. وقد سلَّم هذه الهديَّة في حينها الى الكردينال رئيس اساقفة بلتيمور وسألهُ ان يفصح لقداستهِ عمَّا يكنُّهُ رئيس البلاد من العواطف الشخصيَّة للقابض على

ازمّة الفاتيكان اماً لاون الثالث عشر فاغتنم فرصة هـذه العواطف الولائيّة واحدث سفارة للكرسي الرسولي في امركة واسّس كليّـة كاثوليكيّة في واشنطون حضر حفلة افتتاحها رجال الحكومة. ثم ان بعضاً من الخطباء البروتستان قاموا في بهرة المجلس مطلقين السنتهم بالثناء على ما ابداهُ الاب الاقدس من الدراية والسياسية. وفي سنة ١٨٩٢ لمّا احتفلت الولايات المتحدة بتذكار المائة الرابعة لاكتشاف امركة وانشأت لهذه الغاية معرضاً فخيماً في مدينة شيكاغو كتبت حكومتها وقتئذٍ الى قداسة الحبر الاعظم طالبةً منهُ ان يشترك في المعرض المذكور ويرسل من يمثّلهُ فيهِ فقابلت ممثّل قداسته مقابلة الامراء المالكين وبادر رؤساء الجيش فاناطوا في صدرهِ النوط الوطني الاميركي ولمّا انتهى الى شيكاغو احلّوهُ في المنزلة الاولى. هذا فضلاً عن ان الحكومة كانت قد كلّفت بنوعٍ رسمي نيافة الكردينال رئيس اساقفة بلتيمور ان يبتدئ المعرض بالصلاة

ولو شئنـا ان نعدّد كل ما ادّتهُ حكومة الولايات من انواع التكريم لحلف القديس بطرس لطال الكلام كثيراً. ولكن لا نجد بدّاً من الاشارة الى كونهِ ذا معنى عظيم لصدورهِ عن حكومة بروتستانية معروفة في علائقها بالتحفظ وملازمة المبادئ الديمقراطية

واماً امركة الجنوبيّة فمع ما يعلقها من الثورات المتكاثرة ما برحت شهادات الاحترام وآيات التجلّة متوالية من قبلها لسجين الفاتيكان. غير ان السياسة في هذه الممالك المضطربة قد غيّرتها الثبـات احياناً ومن ثمّ تنشأ المناقضات التي تحيّر المراقب الغير الخبير بحقيقة الاحوال. وممن نذكرهُ في هذه المجالة الجنرال فلورس رئيس حكومة خطّ

الاستواء فانهُ ارسل الى الاب الاقدس جزية مالية من قبل حكومتهِ. وكذلك كل من وتيسي كولومبية والشيلي وغيرها من رؤساء الحكومات في افريقية الجنوبية قد اقاموا مندوبين لهم لدى الكرسي الرسولي وكلما سنحت فرصة يبادرون فيها للاعتراف بما لزعيم الكثاكثة من المناقب والصفات الجليلة

وفي الختام نقول ان هذه المآثر الاجمالية التي اشرنا اليها اشارة خفيفة لهي ذات مدلول بليغ لانها توضح لمن يمعن النظر فيها بخلو غرض كم يحق للكاثوليك ان يعتزوا برئيسهم ويشكروا الله على كونهِ حفظهُ طويلاً لزعامة الكنيسة. لا بل تثبت ايضاً ان الكنيسة الكاثوليكيَّة تستطيع الوثوق بالمستقبل. نعم ان الاهواء البشريَّة لن تزال تضطرب وتهيج غير ان الله من علوّ سمائهِ يسوقها لانجاز مقاصدهِ الازليَّة. ومن المعلوم ان الحقيقة لا تلاقي غير المناصبة والعداء ولكن الانتصار النهائيّ مضمون لها. وهذه حجيَّة لاون الثالث عشر دليل حي على ما نقول